المحاضرة السابعة بعنوان

المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية وأقام فيها إلى وفاته صلى الله عليه وسلم.

وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار والقرى والجبال والوهاد والأودية والسفوح والدور والبراري وفي أوقات مختلفة في الليل والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلم، والحرب.

وقد اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية واستيفاء معانيها واستقصاء مدلولاتها.

وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمون قلة، وكان المشركون كثرة وللحديث مع الكفار أسلوبه ولمخاطبة المسلمين طريقتها.

فالقرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويرفق بهم وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحجة والدليل ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار وظل القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم وأنشأن جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول -ﷺ- بهذه الجماعة والتقى بجماعة أخرى من المسلمين

في المدينة وآخى بين الجماعتين ومزج بينهما مزجا كان نتاجه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة والمؤهلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة يبسط أحكام الدين، ويرسي قواعده ويبني المجتمع الإسلامي ويؤسس صرح الدولة.

وبلا ريب أن معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف ولتلك الأهداف والأغراض ومعرفة ما نزل في المدينة، كذلك يعطى منهجا سليما للدعوة الإسلامية ودروسا للدعاة في مختلف العصور والأمكنة

عناية الإسلام بالمكي والمدني

فلا عجب إذًا أن يعتني العلماء بذلك وأن يولوه اهتمامهم، فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سئولا"١.

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه"٢.

وقد اهتم العلماء من بعدهم بمعرفة المكي والمدني وأفرده جماعة بالتأليف منهم –كما يقول السيوطي– مكي، والعز الدريني٣ وفي العصر الحديث صدرت دراسات كثيرة عن خصائص السور المكية، وخصائص السور المدنية.

كما اعتنى به العلماء في مؤلفاتهم فلا تكاد تجد كتابا يتناول علوم القرآن إلا وكان المكي والمدني أحد أبوابه وفصل القول فيه السيوطي وأشبع الكلام على أوجهه وأفرد بعضها بمباحث خاصة في كتابه الإتقان٤.

أنواع المكي والمدني:

وهي كثيرة منها:

ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، وما اختلف فيه، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل صيفا وما نزل شتاء، وما نزل في الحضر، وما نزل في السفر، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا، والآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدنية، وما حمل من المدينة إلى مكة

السور المكية والسور المدنية:

اختلف العلماء في عدد السور المدنية، وقد نقل السيوطي عن ابن الحصار أن المدني عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكي

السور المدنية: عشرون هي:

١ – البقرة. ٢ – آل عمران. ٣ – النساء.

٤ – المائدة. ٥ – الأنفال. ٦ – التوبة.

٧ – النور. ٨ – الأحزاب. ٩ – محمد.

١٠ – الفتح. ١١ – الحجرات. ١٢ – الحديد

٣ – المجادلة. ١٤ – الحشر. ١٥ – الممتحنة. ١٦ – الجمعة.

١٧ – المنافقون. ١٨ – الطلاق. ١٩ – التحريم. ٢٠ – النصر.

واختلفوا في اثنتي عشرة سورة هي:

١ – الفاتحة. ٢ – الرعد. ٣ – الرحمن. ٤ – الصف.

٥ – التغابن. ٦ – المطففين. ٧ – القدر. ٨ – البينة.

٩ – الزلزلة. ١٠ – الإخلاص. ١١ – الفلق. ١٢ – الناس.

السور المكية:

ما عدا السور المذكورة فهو مكي وعددها اثنتان وثمانون سورة.

hadeel alnafea

طريق معرفة المكي والمدني:

يعرف المكي والمدني بأحد طريقين:

الطريق الأول:

النقلي السماعي:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي –صلى الله عليه وسلم– فلم يرد عنه بيان للسور المكية والسور المدنية لأن هذا مما يشاهده ويحضره الصحابة –رضي الله عنهم– فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكي والمدني يعرف بغير نص من الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الباقلاني: "إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي – صلى الله عليه وسلم– في ذلك قول؛ لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول"١.

ومن أمثلة ما عرف أنه مكي أو مدني عن طريق الصحابة رضي الله عنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ١.

فقد أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إذًا مكية، وسورة الحج روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية.

ومنها ما رواه مسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أَلِمَن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} إلى آخر الآية. قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ}.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها وفيه: "لقد نزل بمكة على محمد -ﷺ- وإني لجارية ألعب: {بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده".

<u>الطريق الثاني: القياسي الاجتهادي:</u>

نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات والسور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول "السماعي النقلي" واستنبطوا خصائص وضوابط للسور المكية وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السورة المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس فسمي هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: "لمعرفة المكي والمدني طريقان:

سماعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي كل سورة فيها: "يا أيها الناس" فقط، أو كلا، أو أولها حرف تهجٍّ سوى الزهراوين، والرعد، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أوحد فهي مدنية"

تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في المراد بالمكي والمدني ومتى تسمى السورة أو الآية مكية أو مدنية إلى ثلاثة أقوال:

ويرجع اختلافهم إلى المعتبر في النزول، فمنهم من اعتبر مكان النزول، ومنهم من اعتبر زمن النزول، ومنهم من اعتبر المخاطبين بالآيات أو السورة، وعلى هذا:

- القول الأول:

لطائفة اعتبرت مكان النزول فقالت: ما نزل في مكة وما حولها ولو بعد الهجرة، فهو مكي، وما نزل في المدنية وما حولها، فهو مدني.

وهذا القول غير ضابط ولا حاصر؛ إذ إنه لا يشمل ما نزل من الآيات في غير مكة والمدينة وما حولهما، فقد نزلت آيات قرآنية في تبوك وفي بيت المقدس وفي الطائف، فالتعريف غير ضابط.

- والقول الثاني:

لطائفة اعتبرت المخاطب بالآية أو السورة وهذه الطائفة نظرت إلى أهل مكة وقت التنزيل، فوجدت أن الغالب على أهلها الكفر والمناسب لمخاطبتهم النداء بـ "يأيها الناس" أو "يا بني آدم"

وبما أن الغالب على أهل المدينة هو الإيمان، فإن المناسب نداؤهم بيأيها الذين آمنوا، وعلى هذا فالمكي عندهم ما كان فيه "يا أيها الناس" أو "يا بني آدم" والمدني ما كان فيه "يأيها الذين آمنوا" نقل السيوطي عن أبي عبيد في الفضائل عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن "يا أيها الناس" أو "يا بني آدم" فإنه مكي وما كان "يأيها الذين آمنوا" فإنه مدني.

وهذا القول أيضًا غير ضابط ولا حاصر من وجهين:

1. الأول: ضعف هذا القول ابن الحصار فقال: اتفق الناس على أن "النساء" مدنية وأولها "يأيها الناس" وعلى أن "الحج" مكية وفيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} 1 وقال غيره هذا القول إن أخذ على إطلاقه فيه نظر. فإن سورة البقرة مدنية وفيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ} 2. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ} 3 وسورة النساء مدنية وأولها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} 4. وبهذا يكون هذا القول غير ضابط وغير مطرد.
2. الثاني: أن هناك آيات كثيرة وسور عديدة ليس فيها نداء بيأيها الناس ولا يأيها الذين آمنوا، وهذا القول لا يشملها فلا يكون ضابطًا ولا حاصرًا.

- القول الثالث

لطائفة اعتبرت الزمان ورأت أن الهجرة هي الحد الفاصل بين المكي والمدني، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة

قالوا: "وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة فهو من المكي".

وهذا التعريف ضابط وحاصر لا تخرج عنه آية من آيات القرآن الكريم وعليه فإن قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا} 2. مدنية مع أنها نزلت في عرفات بمكة، بل إن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} 3. مدنية مع أنها نزلت في جوف الكعبة لأن هاتين الآيتين نزلتا بعد الهجرة عام الفتح.

ضوابط المكي والمدني

ونعني بالضوابط خصائص الألفاظ، ونعني بالمميزات خصائص الأسلوب والمعاني والأغراض للسور المكية أو المدنية.

من ضوابط السور المكية:

1. كل سورة فيها "كلا" فهي مكية.

وردت في القرآن ثلاثًا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن قال الشيخ الدريني رحمه الله تعالى: وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ... ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

وحكمة ذلك أن كلا للردع والزجر، وهذا إنما يكون للمعاند المستكبر فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة.

2. كل سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكية2. وهي أربع عشرة سجدة هي الأعراف والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشقاق، واقرأ باسم ربك، وأما سورة "ص" فيستحب السجود، وليست من عزائم السجود وزاد بعضهم آخر الحجر3 وفي الرعد خلاف.
3. كل سورة مبدوءه بقسم وهي خمس عشرة سورة هي الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر.
4. كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي مثل "الم" "حم" وغيرها سوى البقرة وآل عمران، فإنها مدنيتان بالإجماع وفي الرعد خلاف.
5. كل سورة فيها يأيها الناس وليست فيها يأيها الذين آمنوا فهي مكية إلا سورة الحج فإنها مكية مع أن في آخرها يأيها الذين آمنوا.
6. كل سورة مفتتحة بـ "الحمد" فهي مكية وهي خمس سور.
7. كل سورة فيها قصص الأنبياء ما عدا البقرة.

مميزات السور المكية:

من المعلوم أن ما نزل من القرآن في مكة كان يخاطب مجتمعا وثنيا فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم، بل أخذ يناوؤها العداء، ويضطهد أتباعها، ويحارب رسولها.

وفي المدينة كان القرآن الكريم غالبا يخاطب أتباعه المؤمنين يأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فينتهون عما نهى عنه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن البلاغة تقتضي الاختلاف في الأسلوب والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة، وما نزل في المدنية، فمن مميزات السور المكية.

1. تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان برسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية وعبادة غير الله وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.
2. تشريع أصول العبادات والمعاملات والآداب والفضائل العامة ففي مكة فرضت الصلوات الخمس مثلا وحرم أكل مال اليتيم ظلمًا، كما حرم الكبر والخيلاء ونحوها.
3. الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم وما نزل بالمكذبين من عذاب دنيوي جزاء تكذيبهم وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم وإبطال حججهم بما يوحي إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء وفي هذا بسط أيضا للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

nadeel amira

4. قصر السور الآيات مع قوة جرس الألفاظ ووقعها. وإيجاز العبارة مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول -ﷺ- في القراءة يتنادون: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}.

ولا يناسب هذا المقام طول الآيات والمقاطع، بل يناسبه إيجازها وقوة معانيها.

ضوابط السور المدنية:

1. كل سورة فيها يأيها الذين آمنوا وليس فيها يأيها الناس فهي مدنية، قال السيوطي عن علقمة عن عبد الله "يعني ابن مسعود رضي الله عنه" قال: ما كان يأيها الذين آمنوا أنزل بالمدينة، وما كان يأيها الناس فبمكة.. ثم قال: قال ابن عطية وابن الفرس وغيرهما: هو في يأيها الذين آمنوا صحيح، وأما يأيها الناس فقد يأتي في المدني".
2. كل سورة فيها ذكر للمنافقين قال مكي بن أبي طالب القيسي: "كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية وزاد غيره سوى العنكبوت".

والصحيح أن أول العنكبوت الذي ورد فيه ذكر المنافقين مدني لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها.

3. كل سورة ورد فيها حد أو بيان فريضة، قال عروة بن الزبير: "ما كان من حد أو فريضة فإنه أنزل بالمدينة". وقال محمد بن السائب الكلبي: "كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية".

مميزات السور المدنية:

1- يخاطب القرآن في المدينة -غالبا- مجتمعا إسلاميا فكان الغالب تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض، وأحكام الجهاد وغيرها.
2- نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم وهتك أستارهم، وبين خطرهم على الإسلام والمسلمين وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين فكان الكفار يحاربونهم جهارا.
3- عاش بين المسلمين في المدينة طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود، وكانوا يمكرون مكرًا سيئًا، ويكيدون للإسلام وأهله فكشف القرآن في المدينة سرائرهم وأبطل عقائدهم، وكشف تحريفهم لديانتهم، وبين بطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الإسلام بالحجة والدليل والبرهان.
4- الغالب على الآيات والسور المدنية طول المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية والأحكام التشريعية، فقد كان أهل المدينة مسلمين يقبلون على سماع القرآن، وينصتون حتى كأن على رءوسهم الطير، فالمقام ليس مقارعة ولجاجا يناسبه الإيجاز بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يناسبه الاسترسال والإطناب.

فوائد معرفة المكي والمدني:

1. تمييز الناسخ من المنسوخ فإن المتأخر ناسخ للمتقدم.
2. الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإن معرفة مكان النزول يعين على فهم المراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها وما يرد فيها من إشارات أحيانا.
3. معرفة تاريخ التشريع وتدرجه في التكليف ويترتب على هذا الإيمان بأن هذا التدرج لا يكون إلا من عليم خبير، عزيز حكيم، رحمن رحيم.
4. الاستفادة من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى فهو أسلوب يشتد ويلين ويفصل ويجمل، ويعد ويتوعد، ويرغب ويرهب، ويوجز ويطنب حسب أحوال المخاطبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

5. استخراج سيرة الرسول -ﷺ- وذلك بمتابعة أحواله في مكة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها واقتداء الدعاة بهذا المنهج النبوي الحكيم في الدعوة.

وقد عني بعض المؤرخين بهذا الجانب فوضعوا المؤلفات في سيرة النبي -ﷺ- على ضوء القرآن الكريم.

6. بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به حتى إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني بل تتبعوا مكان نزوله ومعرفة ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها وما نزل بالليل وما نزل بالنهار وما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء ويتبع هذا الاقتداء بهم في دراسة القرآن وعلومه.

hadeel almafea